(( وقفة مع أصحاب الغار ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

الأولى

يا خالق الأكوان أنت المرتجى وإليك وحدك ترتقي صلواتي

يا خالقي ماذا أقول وأنت تعلم حاجتي وشكاتــي

يا خالقي ماذا أقول وأنت مطلع على شكواي والأناتي

ﭽ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ فاطر: ١٥

الملوك ، والأمراء ، والوزراء ، والعلماء ، والحكماء كلنا أنا وأنت ، وهي وهو ، مفتقرون إلى الله الغني الحميد ، فمهما طغت المادّيات ، وكثرت الملهيات ، وتوسّعت دائرة التقنيات ، فالناس فقراء إلى الله في كل صغيرة وكبيرة ، والحياة الدنيا مليئة بالفتن والمحن .

الحياة الدنيا لا تسلم من همّ وغمّ ، وضيق وعسر ، وحزن وألم ، ففي تقلّب الدهر عجائب ، وفي تغير الأحوال مواعظ ، وشدائد الحياة آتية لا محالة ، وهناك لحظات حرجة ستنزل بنا عندها تظهر الحقائق ، وتبلى السرائر ، وتنكشف الأعمال الصالحة، ولا ينجو من ظلمة الفتن ، وشدة المحن إلاّ من ركب سفينة الصالحين ، فعرف الله في رخائه فعرفه الله عند نزول محنته وشدّته .

وإليك هذه المحنة الرهيبة القاسية المهلكة التي نزلت بثلاثة نفر من بني إسرائيل

حدّث عنها سيد الخلق أجمعين نبينا محمد .

قصة سمّيت بقصّة أصحاب الغار ، ففي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر { قال : قال رَسُولُ اللَّهِ : " بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا. فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ " .

قصة عجيبة عظيمة لثلاثة رجال خرجوا في رحلة بريّة ، وحاجة من حوائج الدنيا ، وبينما هم في سيرهم تلبّدت السماء بالغيوم ، وتساقط المطر الشديد ، وتتابع البَرْدُ والبَرَدْ ، واشتدّ الظّلام وعظم الكرب ، فلجأوا إلى غار وكهف مظلم ، فآووا إليه ، فساقت السيول الشّديدة صخرة كبيرة انحدرت من أعالي الجبال ، فسدّت باب الغار ، فإذا الغار صندوق مغلق ، محكم الإغلاق ، وأصبح الليل والنّهار عندهم سواء ، إن نادوا فلن يسمع نداءهم ،

وإن استغاثوا فلا مغيث من الناس ، ولا اتصال ولا إرسال ، فضيق عليهم الحصار ، واشتدّ عليهم الكرب ، وقلّ الزاد ، وجفّت الأعناق ، وضاعت الحيل ، وأصبحوا بين الحياة والموت ، وبين ما هم في هذا الكرب الشديد ، استنطق الله أحدهم فقال : ( والله لا ينجيكم من هذا الكرب إلا الله ) .

حين تشتدّ الأزمات ، وتضيق الفُرجات ..

حين يبلغُ البلاءُ منتهاه ، وتتأزّم الأمور ، ويضيق الحال ، وتفيض العين ، ويعتصِر القلب ، فإنّه لا نجاة إلا بالله ، لا كاشف للبلوى سوى الله .

يـا مَن إلـيهِ جميـعُ الـخَلْقِ يبتَهِـلُ وكُـلّ حـيّ عـــلـى رُحمـاه يتّكِــــلُ

أنـت المَـــلاذُ إذا ما أزمـــةٌ شَمَــلَت وأنت ملجأُ مَن ضاقــت بهِ الحِــيلُ

أنت المُنــادَى بِهِ في كُــل حادثةٍ أنت الإلــــه وأنت الذُّخـــر والأملُ

أنتَ الرَّجـــاء لِمَــن سُــدّت مذاهِـبهُ أنت الدّليل لمن ضلّت بهِ السّبُلُ

فقال قائلهم : تعالوا بنا نتوسّل إلى الله ، وندعوه بصالح أعمالنا في الرخاء ، فقام الأول فدعا الله ببره لوالديه ، فقال : " اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا "

فكان بين خيارين ؛ أمّا الأول فأن يوقظهما من نومهما ليشربا طعامهما .

وأمّا الثاني فأن يطعم صبيته ، ولكنّه أعرض عن الخيارين واختار أن يقف على قدميه والصبية يصطرخون عند رجليه ، والطعام في يديه، فلبث قائماّ براً بوالديه حتى برق الفجر، فشرب الأبوان .

" اللهم إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ.

فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ "

الأبوان .. تاج لا يراهما إلّا الأيتام .

الأبوان .. رحمةٌ فقدهما اللقطاء .

الأبوان .. أوسط أبواب الجنان .

الأبوان .. برّهما رحمةٌ وتوفيق ، والإحسان إليهما سعادة وتسديد .

فطوبى ثم طوبى لمن اغتنم حياتهما ..

طوبى ثم طوبى لمن برهما بعد موتهما ..

وتوسّل الثاني بخوفه من الله ، خوفه من الله الذي حال بينه وبين الفاحشة ، فها هي ابنة عمه التي طالما راودها عن نفسه ، ابنة عمه التي أحبها حبّاً جمّا ، فدعاها فأبت ، فنزلت بها النوازل ، وأصابتها الفاقة والحاجة ، فجاءت إليه فاستغلّ ضعفها وراودها عن نفسها ، فاستسلمت كارهة ، قال الرجل : "فلمّا وقفت بين رجليها" ، وفي رواية "فلمّا تكشّفتها وهممت بها" ؛ في لحظة هيجان الغريزة ، وشدة الرغبة والشهوة ، قالت له : " اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ "

اتَّقِ اللَّهَ ، اتق الجبار المتعال .. اتق الرقيب الحسيب ..

اتق الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ..

قال الرجل: فقمت عنها مخافة الله، قام عنها بعد ما كانت أمنيته وشهوته، قام عنها بعد ما أحبّها كأشدّ ما يحبّ الرّجال النّساء ، " اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تفضَّ الخَاتَمَ إلّا بحقّه "

لا إله إلا الله .. يا ترى كم ترد على آذاننا " اتق الله " ؟

كم يسمع الرجل منّا " اتق الله " ؟

كم يسمعن النّساء " اتقين الله " ؟

أين نحن من " اتق الله " ؟

كيف حالنا مع كلمة " اتق الله " ؟

اتَّقِ اللَّهَ قيلت لعمر بن الخطاب فقد دخل عليه رجل فقال: اتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَاللَّهِ مَا الْأَمْرُ كَمَا قُلْتَ قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى الرَّجُلِ فَقَالُوا: لَا تَأْلِتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَآهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّجُلِ قَالَ: دَعُوهُمْ، فَلَا خَيْرَ فِيهِمْ إِذَا لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِذَا لَمْ تُقَلْ لَنَا"

اتق الله قيلت لهارون الرشيد من رجل يهودي كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَاخْتَلَفَ إِلَى بَابِهِ سَنَةً، فَلَمْ يَقْضِ حَاجَتَهُ، فَوَقَفَ يَوْمًا عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا خَرَجَ هَارُونُ سَعَى حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَنَزَلَ هَارُونُ عَنْ دَابَّتِهِ وَخَرَّ سَاجِدًا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَمَرَ بِحَاجَتِهِ فَقُضِيَتْ، فَلَمَّا رَجَعَ قِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَزَلْتَ عَنْ دَابَّتِكَ لِقَوْلِ يَهُودِيٍّ! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:" وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهادُ "

وتقال اليوم كلمة " اتَّقِ اللَّهَ " للمسلم المسئول ، والكفيل والمكفول ، فلا يزداد أحدهم إلّا عزّة وإثماً .

تقال " اتَّقِ اللَّهَ " للزوج في زوجته ، وللزوجة في زوجها ، فلا ترى إلا ظلماً وعدواناً ونشوزاً .

تقال " اتَّقِ اللَّهَ " للولد في أبيه ، فيزداد عقوقاً وقسوةً وظلماً .

تقال " اتَّقِ اللَّهَ " للمتهاون في صلاته ، الغافل عن حياته ، الغارق في سباته ، فلا يزداد إلّا غفلة وإعراضاً .

تقال " اتَّقِ اللَّهَ " للوالد في أولاده ، وللجار في جاره ، وللمماطل في حق أخيه ، فلا ترى إلا عُتُوّاً واستكباراً .

لا تقلْ أصلي وفَصلي أبداً إنما أصلُ الفَتى ما قـد حَصَلْ

ليسَ مـنْ يقطعُ طُرقاً بَطلاً إنـما مـنْ يـتَّقي الله البَطَـلْ

واتَّـقِ اللهَ فتـقوى الله مـا جاورتْ قلبَ امريءٍ إلا وَصَلْ

قال الرجل : "فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا. فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً " .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ....

الثانية

وتوسّل الثالث ، فدعا الله بحفظ الأمانة ، وحفظ حق الضعيف، وأداء الحقوق إلى أهلها ، فلم يتعدّى على حقّ أجيره بحجة أنه هو الذي تركه، بل رعاه ونمّاه، وأعطاه إياه كاملاً دون بخسٍ أو ظلمٍ ، استمع إليه وهو يدعوا ربّه قائلاً : "اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ " .

فتأمل هذا أيها المؤتمن على مال غيره، ويا أيها القائم على مال أيتام، والناظر على أوقاف أموات أو أحياء، وتأمل هذا أيها المستأجر في أجرة ما استأجرته.

وتأمل هذا ثم تأمله -أيها الكفيل- في رواتب من كفلته، وفي مستحقات من استقدمته:

ﭽ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭼ آل عمران: ١٠٢